(٩٩)

"رُبْع قرْن"

هل كان لابد أن تمضى من العمر خمسة أعوام، وعشرون آخرون، كى تتضح الصورة أمامه؟ وهل كان لامفر من مضى ربع قرن من الزمان ليكون هو من هو؟ لقد عانى الكثير لكى يحيا، وصمد أمام الموت أكثر من مرة رغمًا عنه، ولم يكن يدرى لماذا استسلم لنداء الحياة، وكيف سلَّم نفسه لخالق السماء، فبعد أن ظل أمدًا طويلاً يريد أن يستقل بنفسه، وأن يخلصها من كل قيدٍ وأسر، لم يشعر بذاته سوى ونفسه خالصة مخلِصة فى تسليمها لواهب الحياة.

مضت الأعوام رغمًا عنه لتحمل إليه تجربته فى الحياة ماثلة أمام عينيه، ولتفاجئه بأنه ربما كان مختارًا وليس مجبرًا ليكون ضمن من تم استدعاؤهم للوجود كبشر أحياء على تلك الأرض الكروية، وليوقن بأن من كُتِب له الموت قبله بعد حياة قصيرة لم يكن من الممكن له أن يكون سوى ما كُتب له أن يكونه. وبالفعل فقد كان قبل موته ذلك المخلوقٍ النقى الجميل الذى زار الحياة الدنيا مارًا عليها مرور الكرام، وكأنه أطهر من أن يمكث فى الأرض ما يمهله لتلقى ابتلاءاتها، أو أنه أقل مكانة ممن سيحملون الأمانة فيؤدونها حق أدائها، أو أنه أرفع مقامًا ممن سيحملونها ويفرطون فيها خائنين لعهدهم القديم، أو غافلين عنه نسيانًا له وتناسيًا لقدْرِه.

لقد كان هو، وكانت حياته، وكان قدره الذى لم يكن واعيًا له فى البداية، فأضحى مُسلِّمًا به حتى النهاية. وقد كان طريقه الذى جاهد ليختار خطواته فيه، فإذا به هو الذى يقوده إلى ما سلمت به نفسه وهو فى عالم الذر، ليكون عمله مرآة إيمانه، وليكون قدَره أن يكون واحدًا من ضمن ملايين البشر الذين هبطوا ليصعدوا مرة أخرى، وعاشوا ليكونوا شهداء على مواجهة الحق للضلال، وليعلو معهم صوت كلمة العدل، فتُسمِع كل ظالم مهما استصغر حجم ظلمه، ولتكون رحلة حياتهم أملاً لكل حي، وعبيرًا لكل عاشق، وفقهًا لكل عالم، ومثلاً يُحتذَى به فى الصمود إلى أن يحين موعد الصعود.